رجاء من السراب

يسرى الأيوبي

قصة نبيلة عباد

لست أدري من أين أبدأ قصتي. إنها متغلغلة في طفولتي البعيدة، في الأحداث التي كانت تدور بي وتطبع شخصيتي، في الأحاسيس المبهمة التي كانت تترك بصماتها على حياتي وتصرفاتي المقبلة.

لست أدري لم أشعر في أعماقي بحيرة من الحزن. كيف بدأت تتجمع قطـرة فقطـرة وتترسب وتجعل مني تلك المرأة المستوحدة التي هجر الفرح قلبها وهربت البسمة من شفتيها. أعلم أن المستقبل أصبح مسدودا أمامي، أعيشه فقط في ابنتي ومن أجلها ولست أريد لهـا أن تواجه ما واجهته ولا أن تقع في الشباك التي وقعت فيها.

أتراني قادرة على أن أتيح لها السعادة التي حرمتها؟ أتراني قادرة علـى أن أجعلهـا تستمتع بحريتها منطلقة كما هيأتها الطبيعة، سيدة نفسها ومستقبلها ومصيرها؟ أترانـي قـادرة على أن أعلمها الحب والعطاء مع من يستحق حبها وعطاءها أنا التي كانت حياتي تسير رغما عني وعرفت القسر الذي يفرضه الأب والأخ والزوج والأوصياء وكل مجتمع الرجال في تلك العائلة البارزة التي كنت أنتمي إليها والتي لم تكن أكثر من صورة عائلة مقتطعة من القـرون الوسطى تناسى الزمن أن يمزقها ويذروها للرياح؟ أتراني أستطيع أن أدفع بها إلى النجاح من وسط الفوضى والخراب الإجتماعي والخلقي أنا التي لم تعرف في حياتها إلا الفشل وإلا خيبة الآمال؟

هل يملك المحروم أن يعطي والجائع أن يشبع غيره والجاهل أن يقـود سـواه إلـى المعرفة؟ قد أكون تلك المحرومة والجائعة والجاهلة ولكنني أملك الحاسة العاقلة التي أعـرف بها زيف الواقع الذي عشته، وأملك العناد لتغييره بالنسبة لابنتي، وأملك الحب الكبيـر الـذي أحمي لها به المستقبل.

أتراني أتجاوز بهذه الثقة حدود الواقع؟ إن الملايين يظنون بـأنهم يملكـون الحاسـة العاقلة، ومع ذلك فالعالم يجري حولهم ويقتحم حياتهم على غير ما يشتهون. أنا لـست أقـوى منهم بل لعلي ضعيفة بالغة الضعف بمقاييس القوة في هذا الزمن،ومع ذلك أحس بين ضلوعي بروح عملاق يريد أن يفجر ذلك القمقم الذي حبسته فيه الطلاسم، ثم ينوح كطفل صغير نجـا بأعجوبة من بيت تهدم فوق رؤوس أفراد عائلته.

إن سر قوتي هو ذلك الحب الطاغي الذي يملأني من أجل ابنتي، وإصراري على أن أجنبها واقعي العاجز . سأجعلها تطير ولو زرعت لها الأجنحة من أعصاب عيني، ولن أسمح لإرادة أخرى غير إرادتها الواعية الخيرة أن تعبث بمصيرها.

إن انتماءها هو لجذورها العميقة، لتراب وطنها، للبنان، لجنوبه للأرض التي يدنسها العدو بحجة أمنه، للبيت الذي ولدت فيه وسكنته أجيال من أسرتنا. ذلك البيـت الكبيـر علـى شاطئ البحر الذي حوله جدي الى مدرسة تتلمذ فيها كثير من أبناء الجنوب، ثم أبناء اللاجئين الفلسطينيين الذين هاجروا عام 48 وأولائك الذين لحقوا بهم عام 70 والذي تهدم قسم منه في الغارات. ولقد شهد معارك، منها مابين اللبنانيين والإسـرائيليين، ومنهـا مـا بـين الغـزاة والفلسطينيين، ومنهاما كان بين الطوائف اللبنانية، ومنها ما كان بين الفرق الفلـسطينية، ثـم أصبح واقعا تحت الإحتلال لاأراه إلا في أحلامي، وأمس حلمت بأنه جدد وأن الطلاب كثروا فيه، طلابا لا يتحدثون اللغة العربية، وأن دوري فيه أن أكون مشرفة، وأن أوامر صدرت إلي أن أقبض على عصابة لصوص تسرق الكتب والدفاتر والأقلام من المدرسة، وأننـي ألقيـت القبض على هذه العصابة فإذا بهم أطفال يريدون كتبا ودفاتر وأقلاما ليتعلموا فقلت لهم: لدي مجموعة كبيرة من قصص الأطفال لابنتي أضعها في المستودع، وأنني أحضرتها ووزعتهـا عليهم وكنت أهتف بهم: "أتقنوا لغتكم العربية، أتقنوا لغتكم العربية وستصبحون رجالا أكفـاء،

صدقوني بأن كل ما أصابنا من بلاء هو لأننا لانتقن اللغة العربية!" وأنني التفت لأجد مـديرة المدرسة تراقبني مكفهرة، ولتوبخني على تساهلي الذي يشجع المخـربين علـى الـسرقات.. ثارغضبي وأردت أن ألقنها درسا فصحوت على تسارع قلبي الموجع.. أتراني أرزح تحـت وطأة كابوس؟ واستعدت تفاصيل الحلم وسمعت وأنا بين اليقظة والنوم عويـل الطفـل الـذي ينتحب في أعماقي.. أتراها مخاوفي؟ أتراني أرود عالم الغد وأرى مصير أطفالنا وبينهم أبناء ابنتي وأبناء إخوتي وأبناء بلدي الصغير والكبير؟

كم عذبني الغد وصورة الغد الكئيب.. كانت الأمور قبل واضحة في ذهنـي.. كنـت أقول أن العمل هو الذي ينقذها من الشباك التي تعثرت بها حياتي، وأن الحرية التي تطلبها لن تنالها إلا بالعمل المتفوق، وأنها لن تكون كفؤا لهذا إلا بالجهد الـدؤوب وبأخـذ الـنفس دون هوادة. إن ثورتها ستغير العالم وتجعله أكثر إنسانية وتعقلا..

كنت أريد لها أن تثبت ذاتها ولا تجعل من الزواج مهنة ومن بيت الزوجية هدفا، فمـا لم تتغير الأسس التي تبنى عليها العائلة لن يكون وضعها أكثر من تابع مهان ولن تكون أكثـر من عضو أشل في جنس هو دون الآخر وأقل شأنا ، جنس غير فني وغير مـأجور، مهمتـه الإنجاب، ولا يملك حق صيانة من ينجب.. كنت أفتح عينيها فلا تخدع بتلك الهالة القدسية التي أحاط بها الرجال ممارسة نظام هوالظلم عينه والإكراه عينه، نظام يجعل المرأة مهمـا كانـت مؤهلاتها مساوية لأية امرأة أخرى، يقمن جميعا بدور أبدي، أن ينجبن الأبناء لحروبه التي لا تنتهي ويخدمن الرجل المتأله بكل إخلاص..

تغير العالم ولكن لا يزال فيه رجال كثر يقنعوننا بأن المرأة لم تخلق إلا لهذا الـدور، وأن كرامتها وسعادتها مرهونتان في أن تقوم به،ولا تشغل نفسها بأمر آخر هو من اختصاص الرجال. رجال داروا العالم ويرتدون أحدث الأزياء وقد يغطون الرأس العتيق بقبعة..

إن أحدهم وهو والد ابنتي يريد أن يفرض عليها اليـوم مـا أراد أن يفرضـه علـي ورفضته.. يريدها أن تتزوج التقاليد البالية أو يحرمها ثروته.. بل أكثر مـن ذلـك يهـددني باختطافها وتزويجها حين تكبر في أسرته إن لم أسلمها إليه طوعا، ويؤلـب علـي الـشرائع والقوانين، وأنا المحامية الناجحة لا أستطيع حمايتها مـن براثنـه، وأعـرف أنـه يـستطيع الانتصارعلي بما له من مال ونفوذ، وأن أية محكمة ستحكم له لا لي أو لها.. لن تكـون لهـا حرية التفكير في ذلك الجو المغلق الذي يريد أن يسجنها فيـه، وستـصبح فـضائلها آثامـا وكبرياؤها تمردا وصدقها وقاحة وعلمها تفاهة ودقة فهمها ضلالا وطموحها نشوزا وثورتهـا على الظلم خيانة..

ترى هل أستطيع إنقاذها، أم أجعل منها ذلك الوقود ليحترق وهـو يحـرق الأشـواك ممهدا لغيره الطريق؟ كل شيء أهون من أن تقتنصها الشباك التي اقتنصتني.. فلن يتغير مـا في العالم من ظلم ما لم تدفع المرأة نصيبها من الجهد وإنكار الذات وحتى التـضحية لتمـزق شباكها وتنقذ نفسها وتنقذ معها الرجل الذي اعتاد في عصرنا أن يكون سـيد البيـت مـسودا خارجه، وخنع لكل أصناف الطغاة لأنه استحب ظلمه للضعفاء ، وتجعل منه رجـلا رافـضا للظلم منه أوعليه..

أشعر بخافقي يقرع صدري وجلا على ابنتي. إنني أخشى أن تكون الأشـواك أقـوى منها، وأن أرهف حساسيتها للأشواك دون جدوى، أجعلها تسبق الزمن وتلتفت لتـرى نفـسها وحيدة في عالم يسير ببطء السلحفاة، أو تعاشر إنسانا بليد الإحساس وهي مرهفة لحبة الفـول تحت عشرين فراشا..

فقدت أمي وأنا في السن التي يكون فيها الطفل أكثر ما يكون تعلقا بأمه ولا أزال أذكر ذلك الانتظار الطويل المضني أملا أن تعود إلي من السماء حاملة هدية رائعة ، وتعيد قلبـي الضائع إلى مكانه. وكم عاتبتها ودموعي تبلل وسادتي على قسوتها وإهمالها لـي. . أتراهـا أنجبت نسيتني وأنجبت في السماء أبناء أخر ولم أعد حبيبتها الغالية؟ وقررت إذ طالت غيبتها

أن أذهب إليها وأعرف ما الذي يقصيها عني. كم كانت السماء قريبة منـي حينـذاك! كانـت بأعاجيبها حقيقة لدي، ولم أكن أشك أنني لو تسلقت إلى السطح ومددت يدي لأمسك بها يد أمي وانتشلتني نحوها، وأغدقت علي من نعيم عالمها ما لا يخطر لأحد مثله على بال. ولما أتـيح لي يوما أن أحقق غايتي أصبت بخيبة أمل عظيمة وكسرت ساقي فـي اضـطرابي ولهفتـي للنزول حين سمعت صوت أبي. وعشقت صوت المؤذن الرخيم الذي كان ينقلنـي بـه إلـى السماء. كان قلبي يخفق بين جنبي كطائر يدف كلما سمعته ودموعي تجـري علـى وجنتـي مدرارا. ولما سلم يوما على والدي وأنا أسير معه أخذت أرتعد من الفرح، كأنما كـان بـواب السماء بالنسبة إلي، ولم أكن أدري أنه ليس إلا موظفا صغيرا عند والدي ينقده أجره.. كنـت أحيطه بهالة تمجيد، فلا بد أنه يعرف في أعلى المئذنة طريقا سريا يصل إلى السماء فـألتقي بأمي. وتمنيت بيني وبين نفسي أن يقع المؤذن في غرامي ، أنا الطفلة التي لاتتجاوز الثامنـة من عمرها ويخطبني من أبي، ويحملني وهو يغني لي صاعدا بي مئذنته إلى أعلـى البـرج. وشدهت حين قاربت أحلامي أن تتحقق ذات يوم إذ سألني والـدي إن كنـت أحـب صـعود المئذنة، فلم أصدق أذني وذهلت لفرحي. فتلك الرغبة كانت من العنف والاسـتحالة بحيـث لا يمكن تحقيقها إلا بمعجزة وبكثير من السلوك الطيب الذي يرضي الكبار فيجعل باب الـسماء مفتوحا للصغار. وأصبت مرة أخرى بخيبة أمل شديدة وعرفت يومذاك أن هناك انقطاعا مـا بين الأرض والسماء ليس من جسر يصل بينهما إلا في الخيال والأحـلام . وشـاهدت بـدل أحلامي المسحورة الأراضي الشاسعة التي يملكها والدي وقد انتصب فيها منزلنـا الحجـري على،البحر فسيحا على النسق القديم وقد جدده والدي حديثا بتغيير خشبية الأبـواب والنوافـذ وطلائه.. كان يبدو فخما بالمقارنة مع بيوت صغيرة تجاوره يخفف من بؤس منظرها ما يحيط بها من أشجار الحمضيات. أحسست أن لي مكانة خاصة لا تطالها غيري، وهذا سر الطريقـة التي يعاملني بها الجميع وكأنني أميرة صغيرة. ولم أدر أن هذا الوضع هو اللعنة المتربصة بنا والتي كان علي أن أدفع ثمنها غاليا فيما بعد لكأنما الحياة تنتقم من الظلم الذي يوقعـه رجـال عائلتنا، بنساء العائلة..

لم أر في عائلتنا امرأة سعيدة، فإما عانس، أو تحمل في قلبها حبا مقهورا، أو زوجـة مغلوبا على أمرها لكثرة ما تنجب وتربي من أطفال، والذكور في عائلتنا لهم الغلبـة، ولهـم الأفضلية في زواج بنات العائلة..

وشعرت منذ طفولتي المبكرة بالقيود التي بدأت تطوقني حين كانت تقـام مناسـبات أعياد أو انتخاب والدي نائباً عن السنة في المنطقة، وتنتصب الزينات على البوابة والطريـق الموصل إليها من سعف النخيل والآس والورق الملون والكهـارب، وتـدق طبـول الفرقـة الموسيقية ويقوم المطبخ الكبير على قدم وساق في تهيئة قدور اللحم والأرز وسـدور الكنافـة لتقدم للضيوف على الموائد المنتصبة في أرض الدار الواسعة في الطابق الـسفلي، ويهـرع صبية الحي وبناته ليحتشدوا على درج منزلنا الموصل إلى الطابق الثاني وعيونهم المتطفلـة تريد أن تخترق فجوة الباب المنشق عني وقد وقفت بثوب أبيض مـن الأورجنـزا مكشكـشا وبشعري الفاحم المعقود بعناية بشرائط بيضاء عريضة ، كانت"الدادا " تشدني من يدي وتغلق الباب. لم يكن والدي ليسمح أن أختلط بالغمار لكأنما أنا من طينـة أخـرى تنتهـك قدسـيتها بمعاشرة الصغار. وكان قلبي يخفق بعنف رغبة في مخالطتهم ومحادثتهم والإنطلاق واللعـب معهم، على الأقل لأستمتع بممارسة سيادتي عليهم. ولما قال لي صبي في مثل سني " أنا أحبك وأريد أن أتزوجك حين أكبر قلت له "حسنا وأنا أحبك ولكن يجب أن تصبح مثل والدي.."

لم يتزو ج والدي إثر وفاة والدتي، واكتفى بماله من أسرة ثُلاثـة صـبية متقـاربي الأعمار وبنت هي الصغرى التي كنتها، فدللني وأحبني وأغدق علي بقدر ما يـستطيع وقتـه الشحيح بيننا حنانا ورعاية. كان مضطرا للبقاء في بيروت معظم الوقت فوقع عـبء تربيتنـا على جدي لأمي وجدتي. وجدي وهو عم أبي أيضا كان صديقي الذي تعلمت منه كل شـيء

وعرفت منه أحوال العالم والناس، وقصص التاريخ الماضي والمعاصر، وسمعت منه قصص كليلة ودمنة ونوادر جحا وألف ليلة وليلة والموشحات الأندلسية. وكان هـو صـاحب فكـرة تحويل بيته إلى مدرسة كي يعلمنا، وكان جدي يتقن لغاتا عدة : التركية والألمانية والفرنسية. ولم يكن ينقصنا حين أردنا الانتساب إلى مدرسة خاصة ثانوية تؤهلنا لدخول الجامعـة إلا أن نتقن اللغة الإنكليزية.ولقد تمكنا، في وقت وجيز بعد انتقالنا إلى بيروت للدراسة، أن نمتلك هذه اللغة التي انتشرت انتشارا واسعا بعد الحرب العالمية الثانية وحلت محل الفرنسية في كثير من المدارس.

درسنا جميعنا في الجامعة الأميركية، وحين انتسبت إلـى الجامعـة لأدرس القـانون كوالدي كان أخي الأكبر هشام قد تخرج وسافر إلـى جامعـة هـارفرد لدراسـة الاقتـصاد والتخصص فيه بينما أخي الثاني كريم كان في السنة الرابعة يدرس الطب، أما أخـي الثالـث عبد الرحمن فلم يكد يدرس سنة في الجامعة حتى انسحب منها، ومارس الصحافة ثـم تـزوج قبل أخويه، وكان في صراع دائم مع أبي، في اختياره مهنته، وفي زواجـه المبكـر، وفـي انتخابه زوجته من وسط قد يجلب المتاعب له على حد قول أبي.

* * *